الفصل الثالث

قيام دولة المماليك

المبحث الأول: أصول المماليك ونشأتهم

أولاً: من هم المماليك؟

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون، يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم. ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار ـ والي الأمويين على خراسان ـ اشترى ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل[1]. وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيس للرقيق الأتراك[2]، وفي العصر العباسي تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة لاستخدامهم في الجيش[3]، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق ،آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوروبية أيضاً[4]، وكان الخليفة المعتصم العباسي (218 .227هـ/ 833 ـ 842م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند[5]، وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم

(1) تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية، نقلاً عن: بيت المقدس، د. النقر، ص: 47.
(2) تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، للدكتور النقر، ص: 47.
(3) تاريخ المغول والمماليك، ص: 61 ـ 62، تاريخ بيت المقدس، ص: 47.
(4) المصدر نفسه، ص: 61.
(5) تاريخ المقدس، ص: 47.

بضعة عشر ألفاً، وقد امتلأت بهم بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة سامراء لتكون عاصمة لهم، ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار[1]. وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد اعتقاداً منه بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبيّة التي عرف بها العرب[2]. ولكن سرعان ما أخذ أولئك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون[3]، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة (247هـ/ 861م) في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه[4]. وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شؤون الإدارة والحكم فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية، بعد أن صار منهم الجيش والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة[5]، والواقع فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح «مماليك» معنى اصطلاحياً خاصاً عند المسلمين، إذ اقتصرت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من أسواق النخاسة، ويستخدم كفرق عسكرية، خاصة ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل: الطولونيين، والإخشيديين في مصر[6]، والصفاريين والسامانيين في خراسان[7] وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند[8]، أقبلوا على شراء الأتراك الأرقاء لتأكيد سلطتهم، وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح

(1) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص: 12.
(2) تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين، ص: 62.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، نقلاً عن: تاريخ المغول والمماليك، ص: 62.
(4) الفخري في الآداب السلطانية، لابن طباطبا، ص: 220.
(5) تاريخ المغول والمماليك، ص: 62.
(6) المواعظ والاعتبار، للمقريزي، نقلاً عن: تاريخ بيت المقدس، ص: 84.
(7) تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، ص: 97 ـ 167.
(8) تاريخ بيت المقدس، ص: 48.

السياسة في المشرق الإسلامي ازداد نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كما أن الدولة السلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك[1]. ويعد نظام الملك ـ الوزير الكبير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان وملكشاه ـ هو أساس النظام التربوي المملوكي ، وقد جاء في كتابه «سياست نامه» أنه: يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء[2].

ونظَّم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه[3]، ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً[4]، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالأتابكة[5]، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة (465هـ)[6]، وهكذا اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ليكونوا مربين لأولادهم في القصر ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات، وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت

(1) تاريخ بيت المقدس، ص: 48.
(2) دولة آل سلجوق، للأصفهاني، ص: 113، تاريخ المغول والترك، ص: 65.
(3) دولة آل سلجوق، ص: 76، تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(4) تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(5) صبح الأعشى (4/18)، تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(6) أخبار الدولة السلجوقية، ص: 196، 197، تاريخ المغول، ص: 66.

فاستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً[1]، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتابكة. وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، وأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة[2]. وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود وتوسع بالدولة وضم دمشق وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية، وقد توسعت عن الحديث عن عماد الدين وابنه نور الدين في كتابي: «عصر الدولة الزنكية».

وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه[3]، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيون فأكثروا من المماليك الأتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية[4]، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية، كما سمي مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبناؤه: الأشرف: موسى العادل، والكامل، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية[5].

1 ـ نجم الدين أيوب والمماليك: ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه، ومن أهمها: اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوك تركي جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين[6]، وغيرها من الأماكن. وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش

(1) تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(2) تاريخ بيت المقدس، ص: 49.
(3) المصدر نفسه، ص: 49.
(4) كتاب الروضتين (1/ 155)، تاريخ المغول والترك، ص: 68.
(5) تاريخ المغول والترك، ص: 69.
(6) الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 109.

الأيوبي، وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية ـ سياسية نشطة تحولت إلى دولة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح، لتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان. ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

أ ـ الصالحية: وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك، سمّوا باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً اسم البحرية، والتي قُدِّر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف، ومما يقوله ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم[1]. ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساندتهم له للوصول إلى السلطنة، ولذلك عمل منهم جيشاً قوياً يسانده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة، مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة[2]. وأما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزاً لهم ولثكناتهم العسكرية، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك القفجاق، ميزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس، فضلاً عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس، والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة، وفيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة[3].

(1) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 110.

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

(3) المصدر نفسه، ص: 110.

ب ـ ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة: اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف بقلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقراً لهم، وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي (637هـ/ 1239م) و(638هـ/ 1240م)، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة، منها ستين برجاً، وأقام بها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، وقد شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات، وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويسكن مع مماليكه البحرية[1].

جـ ـ هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمّى المماليك البحرية بذلك؟

إن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية، وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية:

- المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال: ابن واصل وأبي شامة، لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقريزي وأبي المحاسن[2].
- من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العادلية، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.
- يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت 647هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان منهم في حلقته وعساكر أمرائه، هذا النص يدل على أن لفظ بحرية

(1) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 114.

(2) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار، ص: 85.

استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل[1].

- أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم: الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة (593هـ) فتح الملك العادل يافا، ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فألقوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا من حالهم[2]. فلفظ بحرية إذن لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنه سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار[3]. وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم، روايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان، وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط، تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[4].

ثانياً: نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك:

كان الصالح أيوب ومن تبعه من الأمراء، لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم جداً منهم، لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو التعسف،

(1) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، للصلابي، ص: 341.
(2) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 86.
(3) المصدر نفسه، ص: 86.
(4) المصدر نفسه، ص: 87.

حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) وليس لقب السيد[1]. وكانت المدة التي يقطعها المملوك ليعتبر منتهياً من تعليمه تمر بمراحل ثلاث:

1 ـ المرحلة الأولى: تبتدئ من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يُجْلَبون صغاراً، تحقيقاً لرغبة الملوك والسلاطين، ثم يوزَّعون على طباق القلعة حسب أجناسهم، تحت إشراف جهاز إداري محكم يتولى شؤونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري. وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين بشؤون الجيش وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها وبالدين الإسلامي الحنيف[2]، فأول ما يبدأ به المماليك في المرحلة الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط، والتخلّق بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار[3]، وكان من ضمن المنهج الدراسي الخاص في هذه المرحلة الاهتمام بالتمرينات والألعاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدى على وجهها الصحيح، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسباتها وأهم ما في هذه المرحلة، إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بها، حتى يصبح أحب شيء إليهم هو الأخلاق الفاضلة[4].

إن الفقهاء والعلماء والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية المماليك ساروا على نهج رسول الله ﷺ في الاستفادة من القرآن الكريم وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة والتصور الصحيح عن الله ﷻ، ومن أهم الجوانب التي اهتمت بها التربية الدينية في هذا الجانب:

- إن الله منزه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تتناهى، فهو سبحانه الواحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.
- وأنه سبحانه خالق كل شيء ومالكه ومدبر أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف، الآية: ٥٤].

(1) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ص: 214.
(2) الحملات الصليبية، للصلابي، ص: 338.
(3) المصدر نفسه، ص: 340.
(4) أباطيل يجب أن تمحى، ص: 339، خطط المقريزي (3/ 346).

- وأنه تعالى جدّه مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل، الآية: 53] .
- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا ما يخفي الإنسان وما يعلن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق، الآية: ١٢].
- وأنه سبحانه يحصي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ [الكهف، الآية: 49].
- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، منهم من يرضى بقضاء الله وقدره ويسلم له ظاهراً وباطناً فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومنهم من يغضب، ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يسند إليه شيء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك، الآية: 2].
- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٦].
- وأنه سبحانه، حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد في القرآن الكريم.

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية والتصورات الصحيحة خطوة مهمة في نهوض الأمة وتحتاج التذكير والتعليم والتربية لكل أفراد المسلمين، وقد ظل ﷺ يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ويكررها عليهم وعلى من آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور والكون المسطور، حتى خشعت قلوبهم وسلمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم[1].

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه موقناً أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة

(1) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، للدكتور سيد نوح، ص: 10 ـ 16.

ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، فقد ركز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التالية:

- إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس، الآية: 24] ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء، الآية: ٧٧].

- وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسؤولون ومحاسبون، وفي الجنة أو في النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة، الآية: 36].

- وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارته في الدنيا وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء، الآيات: 205 ـ 207]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة، الآية: 24].

- وأن الناس مع زوال الدنيا واستقرارهم في الجنة، أو في النار سيمرون بسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج، الآيتان: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل، الآية: 17، 18].

- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ومن تلك الشدائد والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، وبالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج، الآيتان: ١١].

- ومضى ﷺ كذلك يبصّرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى

(1) منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية، ص: 19 ـ 34.

انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع من مغنم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[1].

إن الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية عهد الدولة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني، وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج، وانصبَّت أهدافهم التربوية على تعليم الكتاب والسنة، وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه، وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية، كالإخلاص لله والصبر، والتوكل والاستعانة، وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من الله ﷻ، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال وشباب المماليك فنشأوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي، وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك.

2 ـ **المرحلة الثانية:** وهي التي تبتدئ بسن البلوغ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويراعى في هذه المرحلة الأخذ بالشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ، إنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشذوذ في أخلاقه أو الانحراف عن المبادئ الدينية، ثم يقسمون إلى فرق يتولى كل واحدة منها معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة والعوم لمسافات طويلة، والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يُتْرَكون إلى هواياتهم العملية أو الدينية أو الأدبية، ومن هنا ندرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين[2].

(1) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، ص: 37.

(2) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص: 340.

وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على تحركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[1].

3 ـ **المرحلة الثالثة:** وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ليعرف بلاؤهم هناك، ثم يكافأ المبارزون منهم بمنحهم الحرية، وعتقهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب، كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم أعتقهم ووضع أثمانهم في بيت مال المسلمين، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة،فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في سلكها، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة، وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة[2].

وبفضل الله، ثم هذه التربية المتميزة، نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم، وسجل على صفحاته أمجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي والقضاء على الوجود الصليبي في ديار المسلمين. يقول بروكلمان في شأنهم: وعدت الأجيال التالية عصر بيبرس، كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين أحد العصور الذهبية في الإسلام[3].

4 ـ **نظام الأكل والثياب والراحة:** كان لتعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يخرجوا من مقرهم إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاث أو

(1) الخطط (2/ 213 ـ 214)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 84.
(2) مصر في عهد بناة القاهرة، ص: 169 وما بعدها، إبراهيم شعوط.
(3) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلاً عن: أباطيل يجب أن تمحى، ص: 341.

عشرة دنانير في الشهر[1]، وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوالهم من طعام وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباق والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم. ويلاحظ المقريزي أن ذلك جرَّ إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق، وأنهم أخلدوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم[2].

5 ـ نظام التخرج وإنهاء الدراسة: كانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا انتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه[3]، فيسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً «قماشاً» وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً ـ جمعها معاتيق ـ ومعتقه يسمى أستاذه، أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية[4]، مفردها خشداش وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، وكان منهم الذين يصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تهيء للوظائف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها، وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في الشؤون الحربية، بحيث كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

6 ـ لغة المماليك: هي اللغة التركية، وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية حتى لو لم يكونوا تركاً، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية[5]، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء[6].

(1) الخطط (3/ 348) دولة المماليك، سمير فراج، ص: 32.
(2) دولة المماليك، سمير فراج، ص: 32.
(3) المصدر نفسه، ص: 32.
(4) أي زميل الخدمة.
(5) دولة المماليك، ص: 33.
(6) المصدر نفسه، ص: 33.

7 ـ رابطة الأستاذية بين المماليك: كانت أقوى الروابط بين المماليك، هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه، الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم. وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار ونهرهما، وحلَّ بهما أي مكروه[1].

وكان يقول: كان الملوك يعملون شيئاً يذكرون به، ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي لأولادي وللمسلمين، وهم المماليك، وكانت المماليك تقيم بهذه الطباق[2] لا تبرح فيها[3].

وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها، فالسلطان ـ وهو مملوك في الأصل ـ يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة، كما إنهم عمل يخلد اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأستاذية) التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه، فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته[4].

8 ـ رابطة الخشداشية (الزمالة): وهي من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة، وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جُلبوا أطفالاً، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين،وعاشوا حياتهم الباكرة في سن الشباب سوياً، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سواء مع بعضهم البعض، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي اشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز أيبك، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 47، د. قاسم عبده.
(2) الطباق: الثكنات العسكرية.
(3) الخطط (2/ 213)، السلطان المظفر، ص: 47.
(4) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 48.

ناحية أخرى أدَّى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم[1].

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية، وهو الأمر الذي تجلى واضحاً[2] في تصديهم للمشروع المغولي، وقضائهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام.

9 ـ هل هؤلاء أجلاب؟: لا يمكن أن نتخيل مدلول كلمة «المماليك» بمعنى الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى الفتح العثماني، كما أن بعض هؤلا المماليك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان «قطز» بطل موقعة عين جالوت،ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم صيانة مركزهم الأدبي، كما آتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وأتاح فرصة الظهور في المجالات المختلفة، مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي[3].

10 ـ الكليات العسكرية الحديثة: إن الدول العربية والإسلامية في يومنا هذا عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا، وسنن الله في انتصار الأمم وهزيمتها،وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة، والقائمين عليها، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجية المعاصرة، والحرب النفسية وتطوير السلاح ومعرفة أسراره، والعمل بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 52.
(2) المصدر نفسه، ص: 51.
(3) أباطيل يجب أن تمحى، ص: 341.

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال، الآية: 60].

11 ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام بائع أمراء المماليك: رأى الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه وتصريف شؤون الدولة، يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم، فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي استشاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ ـ رحمه الله ـ في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به[1].

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ـ في الدين ـ بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الانسحاب وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله ومتاعه على حماره، وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما إن انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت جموع المسلمين وراءه فلم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين والتجار وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدون في سبيل الله، لا

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 31.

يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورُفعت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع أن ينادى على ملوك مصر وأمرائها وبيعهم، وأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السلطان ـ بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ انزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلداً، وعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممتلئاً إيماناً بربه، قائلاً لولده: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي، خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيم تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين، قال نائب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا. وأنفذ الله أمره على يد الشيخ رحمه الله فباع الأمراء منادياً عليهم واحداً تلو الآخر وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد[1].

ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجَّل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2]. وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج، الآية: 38]، والقائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف، الآية: 21].

12 ـ عصر الأفذاذ: هذه التسمية انفرد بها ـ على حسب علمي ـ الشيخ محمد محمد حسن شُرَّاب حيث قال: لا أدري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من أول من أعطاهم هذا اللقب، إن كان الذين وضعوا هذا

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 31.

(2) العز بن عبد السلام للزحيلي، ص: 182.

الوصف (المملوكي) هم العرب، فإنهم والله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم الغربيين الأوروبيين، كان علينا أن نعرف أن الأعداء لا يصفون عهودنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم، وأبغض الصفات إلينا، فما كان لنا أن نقلدهم ونسير على هديهم، فالغربيون الصليبيون يحقدون على عصر صلاح الدين، وعلى عصر (الأفذاذ)، وقولهم (المماليك) إنما هو لقب (ذم)، هم يحقدون على هؤلاء الأفذاذ، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس، ذلك أن الحملات الصليبية لم تفتر بعد صلاح الدين. فهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرَّره صلاح الدين، وكانت بقيت لهم ممالك وحصون كثيرة على الساحل وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة (690هـ/ 1291م) أي: بعد فتح القدس بمائة سنة. وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية، بعد الغزو الصليبي ألا وهو الغزو المغولي، ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان، وتعد رمزاً لقوة الإسلام.. وعهد هؤلاء الأفذاذ العلمي من العهود الزاهرة، وآثارهم العلمية والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد، فقد عدَّدت لهم في القدس وحدها خمس وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة، وعشرات المساجد، والبنايات والأوقاف والأربطة والإصلاحات[1]، إنهم إذا كانوا مماليك، فإنهم في رأيي مماليك الإحسان على معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

فأولئك أحسنوا في قرارة نفوسهم أن الله أحسن إليهم عندما جعلهم مسلمين وحكاماً، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلدتهم، ومن حقهم علينا أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالصفة التي تدل على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب والمسلمين، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول: «عصر الأفذاذ»[2].

ثالثاً: جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمَّت بالمسلمين[3]، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وقد عهد لولده الملك

(1) بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص: 424 ـ 425.
(2) المصدر نفسه، ص: 426.
(3) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، ص: 353.

المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه تورانشاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان أثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر (1249م)، ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون، وأصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس، وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته، وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة ـ دلهم عليها أحد العربان، وفي رواية أحد الأقباط[1]، بعدما رشوه بالمال ـ تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي.

وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو وإخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في فجر الثامن من فبراير عام (1250م)، وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار انسحابه من جيزة دمياط، واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[2].

1 ـ معركة المنصورة: اغتر روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 85.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد، ص: 312.

وصول الملك والجيش الرئيس، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة[1]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان، ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقاتل في أطراف المدينة[2]، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي[3]، وأول ابتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله، ووزع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث انقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي[4].

2 ـ تورانشاه يقود المعركة: وصل تورانشاه إلى المنصورة في (17 ذو القعدة 647هـ/ 21 شباط 1250م) بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[5]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة ارتفاع

(1) الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة، ص: 356.
(2) الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، ص: 150.
(3) السلوك (1/ 448)، تاريخ الأيوبيين، ص: 386.
(4) الحملات الصليبية، للصلابي، ص: 356.
(5) السلوك (1/ 449)، تاريخ الأيوبيين، ص: 387.

الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطلعته[1]. وأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم: دمياط[2]، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم، وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الاوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط، وفعلاً أمر بالارتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه، لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[3]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعياً أن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام (648 هـ/نيسان عام 1250م) بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير، فلم ينبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموه من كل ناحية[4]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخُصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدَّة القتلى عشرة آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفاً في قول المكثر،

(1) النجوم الزاهرة (6/ 364).
(2) المصدر نفسه (6/ 364).
(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 288.
(4) النجوم الزاهرة (6/ 364)، تاريخ الأيوبيين، ص: 388.

وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، وأبلت الطائفة المملوكية البحرية ـ لا سيما بيبرس البندقداري ـ في هذه المعركة بلاء حسن وبان لهم أثر جميل[1].

3 ـ صور من شجاعة المماليك: تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين، فذكر جوانفيل أن الكونت بواتييه، والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كانوا يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم[2]. ويقول: ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً ويرتجف خوفاً، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك، والملك قريب من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغم القوات الأخرى على التقهقر[3]، وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف، فللّه درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالإفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين، وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين[4].

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين، بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة، وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم، فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤونة،وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً مما أضعفهم وطلبوا الصلح[5].

4 ـ لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح: لم يهتم المسلمون كثيراً بعد انتصارهم بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب (29/ 356).
(2) السلوك (1/ 450) الحملات الصليبية، للصَّلاَّبي، ص: 358.
(3) الجواري والغلمان في مصر، نجوى كمال، ص: 403.
(4) المصدر نفسه، ص: 404، كنز الدرر (7/ 376).
(5) الجواري والغلمان في مصر، ص: 405 ـ 406.

في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني[1]، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف، وأصرَّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون[2]، فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنتة وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات[3].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[4]، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الرابع من صفر عام (648هـ) الموافق الثامن من مايو عام (1250م) أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم وحلت بها الكوارث[5].

5 ـ من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة: ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة والتي من أهمها:

أ ـ التطوير العسكري في الجيش الأيوبي.

(1) مذكرات جوانفيل، ص: 157، 159 ـ 161.
(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 389، حملة لويس التاسع، ص: 206.
(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 389.
(4) المصدر نفسه، ص: 389.
(5) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد، ص: 315.

ب ـ وحدة الصف الإسلامي.

جـ ـ هيبة القيادة الإسلامية.

د ـ نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد.

هـ ـ جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية.

و ـ خطأ كبير في تقدير العامل الزمني.

ز ـ العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين.

ح ـ انحلال الحملة السابعة خلقياً.

ط ـ فتور الروح الدينية عند الصليبيين.

ي ـ التهور وقصور النظر.

وقد فصلت في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة[1].

6 ـ من نتائج الحملة الصليبية السابعة: لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام (1250م/ 648هـ) مجموعة من النتائج من أهمها:

أ ـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك: فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كُلِّل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر، أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم، وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام (1250م/ 648هـ) هو ذاته الذي شهد نهاية تورانشاه حريقاً غريقاً لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفذاذ لتدافع عن الإسلام[2]، بقوة وعزم ونشاط وحيوية جهادية رائعة.

ب ـ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها: والملاحظ أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين، وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين، وبذلك تأكد للدارسين

(1) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، ص: 360.

(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 371.

كيف أن كافة المحاولات الصليبية لإخضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي/ السادس والسابع الهجريين، لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كايبة الحاكمة في فرنسا، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوروبا بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ووقوعه في الأسر[1]، وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة، السادسة والسابعة.

7 ـ مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية: تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه، وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية[2]، ويرى المؤرخ المصري الدكتور «قاسم عبده قاسم»: بالرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية، فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص «من شجرة الدر » وكبار أمراء المماليك[3].

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدت لقتل تورانشاه منها:

- أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقد أنه سيملأ فراغ والده، ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه ـ الذين رباهم كأولاده ـ وقطع أخبازهم، ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم[4].
- ومن الأسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه، حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرون على الحكم، وسوَّلوا له لأن هؤلاء هم أعداءه وأن في صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط، فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[5].

(1) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 310.
(2) الخطط (2/ 236)، النجوم الزاهرة (6/ 364).
(3) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 148.
(4) الجواري والغلمان في مصر، ص: 408.
(5) السلوك، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 409.

- وقيل أن من أسباب قتله أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره، ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي[1]، ولما ذكَّره بوعده، على لسان بعض خواصه رد قائلاً: أعطه جباً مليحاً يليق به[2].

- وقيل من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه[3]، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا، وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها[4].

- وقيل من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه والجواهر[5]، وهددها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم، بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم، فاستقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الأيوبيين في مصر[6].

- وكان حبه لشرب الخمر، أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حنق المماليك البحرية عليه، وذكرها معظم من أرَّخ لتلك الفترة، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه، ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها بسيفه، وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة، وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين، فافعل فيهم ما أمرك به الله وبه رسوله، يا ولدي إياك والشراب، فإن جميع الآفات وما تأتَّى على الملوك إلا من الشراب[7].

- وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابناً في

(1) نهاية الأرب (29/ 360)، الجواري والغلمان، ص: 409.
(2) كنز الدرر (7/ 381 ـ 382)، الجواري والغلمان، ص: 409.
(3) شفاء القلوب، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 409.
(4) الجواري والغلمان في مصر، ص: 409.
(5) السلوك، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 410.
(6) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده، ص: 148.
(7) نهاية الأرب (29/ 347)، الجواري والغلمان، ص: 410.

دمياط، سير إليها المعظَّم عشرة آلاف دينار ذهباً، ومهداً للطفل ذهبياً، وحللاً ملكية[1]، وغير ذلك من الأسباب.

والمهم أن نعرف حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد بين معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة، فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد، والخدم المقدمين لا تغيرهم فما قدمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته، وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغيرهم فإني أعتمد عليهم في جميع أموري[2]، وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم وتعطي كل واحد منهم كوس[3] وعلم، وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت أعتمد عليهم وأثق بهم وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي، ولولا المماليك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم[4].

وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم، وارفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به، وظهرك الذي تركن إليه، وطيِّب قلوبهم، وزيد في إقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[5].

ومن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها، والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي، وحفظ البلاد للسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد، توقَّعوا أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه[6]، ويبدو أن

(1) الجواري والغلمان، ص: 410.
(2) المصدر نفسه، ص: 411، نهاية الأرب (29/ 350).
(3) الكوس: من شعارات السلطنة والإمارة، وهي صنوج من نحاس.
(4) نهاية الأرب (29/ 351)، الجواري والغلمان، ص: 411.
(5) الجواري والغلمان، ص: 411.
(6) مرآة الزمان، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 413.

الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه، وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي، آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه[1]، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي، الذي كانت له هيبة في عهد الصالح، وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه، وهو الذي حرَّض على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[2]، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به[3].

8 ـ كيفية مقتل تورانشاه: ونتيجة لبعض التصرفات غير المسؤولة وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه، قرر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني، وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين 28 محرم (648هـ/ 2 أيار 1250م)، وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره ويتهيأ لاستعادة دمياط[4]، وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته واحتمى به وهو يصيح: من جرحني؟ فقالوا: (الحشيشية) فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك، وقرروا قتله وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها.

ودخل ركن الدين بيبرس وفارس أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فألقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يجيرني[5]، فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل، ونبال المماليك تأخذه من كل

(1) الجواري والغلمان، ص: 414.
(2) المصدر نفسه، ص: 414.
(3) المصدر نفسه، ص: 414.
(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 390.
(5) النجوم الزاهرة (6/ 371).

جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن حكم واحداً وستين يوماً[1]، وقيل: مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً، لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل، ولم يعتل سرير الملك[2]. وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[3]، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية انقضت بخلع شجرة الدر[4]، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أن حكم شجرة الدر استمراراً للحكم الأيوبي، وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى[5].

رابعاً: أسباب سقوط الدولة الأيوبية:

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم ـ كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ـ يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وأن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وأن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم[6]، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور، الآية: 63].

لقد كان في ابتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في نزاعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في الضنك من الحياة، إن

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الدولة الأيوبية، د. عكور، ص: 262.
(2) بدائع الزهور، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 416.
(3) المصدر نفسه، ص: 416.
(4) عجائب الآثار للجبرتي، (1/ 51)، الجواري، ص: 416.
(5) الدولة الأيوبية، د. عكور، ص: 266.
(6) الدولة العثمانية، للصلابي، ص: 520 ، الدولة الأموية (2/ 568).

هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم، وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أياً كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[1]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال، الآية: 53]، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله، وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام، الآيتان: 44، 45]، لقد نسي هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ﴾ [آل عمران، الآية: 45].

ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء، الآيات: 18 ـ 20]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل، الآيتان: 112، 113]. ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود، الآية: 52]. وهناك الآيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة، الآية: 19]، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسؤولة عما يصدر عنها، ولا

(1) في التفسير الإسلامي، للتاريخ، نعمان السامرائي، ص: 88.

يتحمل أحد جريرة غيره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة، الآية: 134]

المهم أن الله تعالى لا يحجب نعمه عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: 286]، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النصوص ملهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس، الآيات: 7، 10]. وقال ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد، الآية: 10]، ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة والحضارة بضربة واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام (648هـ) وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 ـ توقف منهج التجديد الإصلاحي: كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسة التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة إلى اتجاه عام في الدولة، حتى لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس[2]. وذلك يرجع إلى أمور منها:

أ ـ نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية: فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر «الإخلاص» في العمل، أي أنها ركزت على التربية أكثر من الإستراتيجية، ولذلك لم تفرز «فقه الحكمة» اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد، وتنظيم مسؤوليات العاملين فيها وأدائهم وحسن استثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما و

(1) أيعيد التاريخ نفسه، ص: 134.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

اكتفت بـ(فقه) الآباء الذي يركز على «المظهر الديني للقيادة» دون «المظهر الاجتماعي»، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق «الزهو» وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه مثلاً: «قادري السلوك» و«شافعي المذهب»، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين «الفقه» المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية عن مسرح الحياة برز تأثير العامل الثاني، أي أثر العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي حقق إفراز ظواهر غير إيجابية منها:

- حين لم يجد جيل الأبناء فقهاً سياسياً وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة، ارتد إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدَّى إلى تفكك الدولة وانقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحَّده جيل الآباء، وأداروه طبقاً لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين، والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

- أدى النقص في الفقه السياسي والإداري إلى انفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش، من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري، الذي يصفه ابن خلكان بأنه: «كان صلاح الدين أطعمه وهو شاب إقطاع نابلس، إكراماً لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين وانسحب عماد الدين إلى قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام 610هـ»[1].

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

والخلاصة أن الجدب في الفقه السياسي والإداري أفرز ـ بعد جيل صلاح الدين ـ قيادات وإدارات متسلطة فردية عملت على أن تحكم الأمة بقيم القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى، والارتجال بدل التخطيط[1].

- قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وتحرر ديار المسلمين من الغزو الصليبي، وكانت التغيير العملي على مدى أصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام، وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرقة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادي والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي، وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون. وإذن فإن اختفاء الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك مقامها، كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن اختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضاً عملياً لسقوط فكرة الجهاد، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة وضرورة استمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول وهؤلاء الرجال[2].

ب ـ ومن الظواهر السلبية: التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح، تسلل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي وابن المستوفي، أن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية، وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها، واجتماع العامة فيما عرف

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

(2) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات، ص: 395.

باسم «الطرق الصوفية» التي اشتُقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين: كالطريقة القادرية، والطريقة البيانية، والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال[1].

2 ـ الظلم: إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجِّل في موته، بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها، مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: الآية: 34]. قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي رغم أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله فلا يمكن لأحد أن ذلك يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[3]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآيات: 100 ـ 102].

إن الآية الكريمة تبيِّن أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: الآية: 102] فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من خطورة الظلم[4].

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 323.
(2) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: 121.
(3) المصدر نفسه، ص: 121.
(4) الدولة الأموية، للصلابي (2 ـ 571).

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة، بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[1] تزول، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: الآية: 117] قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[2]. وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط[3]. قال ابن تيمية رحمه الله في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[4]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخيه، والعم بني أخيه ظلماً وجوراً وتسلطاً على العباد والبلاد، وحوصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات، وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام، وتم الاعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق، وقد بينَّا ذلك في مناسبات عديدة في كتابي «الأيوبيون بعد صلاح الدين»، و«الحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة».

3 ـ الترف والانغماس في الشهوات: قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ

(1) السنن الإلٰهية، ص: 121.
(2) تفسير الرازي (18/16).
(3) تفسير القرطبي (9/114).
(4) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص: 40.

ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود، الآية: 116]، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء، الآيات: 11 ـ 13]، ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء، الآية: 16]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها: أي: متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوئهم، إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2].

إن أمر بني أيوب ما زال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضى أمرهم إلى أبنائه، فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد على ذلك كثيرة نذكر منها: ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعله أستاذ الدار ـ وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس ـ والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، وكان عابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه، وتجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين، ويسخر بالشرع ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فقد بنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي: قاعدة لسماع الغناء والموسيقى، وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل هذا. ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشارب وما يترتب على ذلك من آفات، وحبّ التكثر من المال والتوسع في الركوب، وفي المسكن والملبس والنكاح لدى بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

---

(1) السنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص: 186.

(2) تفسير الألوسي (15/ 42).

4 ـ تعطيل الخيار الشوري: ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم عرض الحائط ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة، والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال، ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه: إنه قبيح بي أن أكون أتابكاً مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر رحمه الله صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل، خفت أن يخرج الملك من يدي، ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره[1]. ثم إن الملك العادل ورَّث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة، ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

ـ إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً، وقوة العصبية، على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:

* تقييد حق الأمة في اختيار سلطان بحصره في أسرة معينة.

* تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.

* دفعت المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن افتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما سلف ذكره.

* وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أثار الشك ـ عند بعض الناس ـ حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.

* أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي، وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم[2].

5 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية: إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أسباب هلاك

(1) في التأصيل الإسلامي، للتاريخ، ص: 60.

(2) نظام الحكم في الإسلام، ص: 307.

الأمم وزوال الدول: «الاختلاف»، قال رسول الله ﷺ: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»، وفي رواية «**فأهلكوا**»، وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»[1].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوفي أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين، الأنانية، وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمنصب، وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة.

وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها[2]، لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية، فلم يحترم الأخ أخاه، والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي اتسم به أبناء صلاح الدين، إذ أنه استخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من غمده، إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية «أمراء صلاح الدين»، والأمراء الأسدية، «أمراء أسد الدين شيركوه» الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين[3]. وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه[4]، واستمر الصراع في الأسرة

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/ 101 ،102).
(2) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ص: 118.
(3) في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده، ص: 82 ـ 83.
(4) دور الفقهاء، ص: 174.

الأيوبية بعد وفاة الملك العادل، حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي.

6 ـ مولاة النصارى: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران، الآية: 28]. وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة، الآية: 51]، وقال رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله، والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله**[1]».

أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء، ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب وبدون إراقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه، وكان الملك الكامل لديه استعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل دخل في صلح مع الصليبيين، وسلّم لهم أحد الحصون، وتصدى للشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة، ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عامل وسائر بلاد الساحل. وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل. في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية، وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها، فسال لعابهم لذلك، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو

(1) صحيح الجامع.

مصر[1]، وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص، على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[2].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين، فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم، وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون[3]. وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين، وتنازل لهم عن مدن المسلمين من أجل الحكم والسلطان.

إن بعض ملوك بني أيوب أمعنوا في موالاة النصارى الصليبيين، وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها، وفقدت أبرز مقوماتها، وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

7 ـ فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري: حاول صلاح الدين بإيمان صادق وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي، وحرص على الفتوحات العسكرية والدعوية، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين، وتقيد بالسياسة الشرعية، وعمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر، فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة، وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر العلمية والتربوية والثقافية والحضارية، إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة، ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة سامية تأخر فيها الأيوبيين وغلبتهم الظروف والتحديات، فأصبحوا أمام قانون التاريخ

(1) النجوم الزاهرة(6/ 322) الدولة الأيوبية، دعكور، ص: 233.
(2) النجوم الزاهرة(1/ 305) الدولة الأيوبية، ص: 233.
(3) السلوك(1/ 305) الدولة الأيوبية، ص: 233.

الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي، أما أن يتقدموا أو يزولوا من الوجود، فلا سكون في تاريخ البشرية.

8 ـ ضعف الحكومة المركزية: قسّم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز، وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال، يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في مفهومنا الحديث بـ (اللامركزية الإدارية)[1].

والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تنسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[2].

وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي، إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسَّم الإرث، بين أبنائه وإخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً في تلك العصور، وكان طبيعياً أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان، وكان وقت وفاة أبيه مقيماً بالقاهرة، وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد[3]، وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك، وولي الظاهر غازي حكم بلاد الشام الشمالية، وكانت حلب عاصمته وتولى بقية أجزاء

(1) تاريخ الأيوبيين، طقوش، ص: 210.

(2) المصدر نفسه، ص: 211.

(3) السلوك(1/ 114) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 80.

الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[1]، وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، لقد كان تقسيم الدولة على نحو تقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة من ناحية، وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى[2]، فتفتت دوله صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك والتوسع.

9 ـ ضعف النظام الاستخباراتي: كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين، واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة، إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس العسكر الإسلامي ليلاً[3]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة دينار، والذي أعدوه للهجوم على عكا، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها، ولم تكن اختراقات الجهاز الاستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الاستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

10 ـ غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي: مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الإستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد، وهي اعتماده على العلماء الربانيين، فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير

(1) تاريخ مصر الإسلامية (2/ 96) جمال الشيال.

(2) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. قاسم عبده، ص: 80.

(3) صلاح الدين الأيوبي، للصَّلاَّبي، ص: 381 ـ 382.

الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخو المؤرخ المشهور ابن الأثير، على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل، ولم يكن موفقاً أبداً، بل جرّ البلاء والسخط والغضب والكراهية على الملك الأفضل، وأصبح القاضي من المبعدين عن القرار السياسي، وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بلداً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي، وقد قال أبو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد، وعقل رشيد، ومعظماً عند السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بتنفيذ آرائه وكانت كتائبه كتائب النصر[1].

11 ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه: استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، والتي ساهمت في تقوية الجيوش وانعكس ذلك على الدولة، ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوك تركي وعمل منهم جيشاً قوياً سانده في فرض إرادته على الأقاليم، والقضاء على حركات التمرد الداخلية. وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً واستطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد، ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وعهد لولده المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه، إلا أنه لم يكن رجل المرحلة، وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص «من شجرة الدر» وكبار أمراء المماليك، فاحتقر خصومه واستبد برأيه وأبعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصومه وضعفت الثقة بينه وبين رجاله، وفشل في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله وزالت الدولة الأيوبية بموته، هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية.

(1) كتاب الروضتين(2/ 241).

المبحث الثاني
سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

أولاً: شجرة الدر:

1 ـ شجرة الدر: أيوبية أم مملوكية؟ إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي، صاحب: «السلوك لمعرفة دول الملوك»، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر، ولقد أُطلق عليها اسم «دولة المماليك الأولى» بإزاء «دولة المماليك الثانية» التي هي دولة المماليك البحرية، واعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم، أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظيّة الملك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك، وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه: «السلاطين في المشرق العربي»، أنها مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماماً، بما في كلمة مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل الذي مات وهو طفل صغير[1]. ويعتبر ابن إياس صاحب: «بدائع الزهور»، شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[2].

2 ـ سلطانة مصر: كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب، وتصرفها حيال الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع أبلغ الأثر لدى المماليك بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماس سياسي، وحنكة ومهارة، في تصريف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الذي كادت أخطار الحرب والاستيلاء على دمياط أن تفت في عضد أي حاكم آخر[3].

لقد عملت شجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين، لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري الذي كان يقاتل الغزاة، إذ لو أعلنت نبأ وفاة الملك والجيوش المسلمة والصليبية في التحام وعراك، لأفلت الأمر من أيدي القادة

(1) السلاطين في المشرق العربي، ص: 9.
(2) بدائع الزهور (1/ 89).
(3) شجرة الدُّر قاهرة الملوك، نور الدين خليل، ص: 75.

المماليك، وبعث فيهم نبأ وفاة الملك شيئاً من الضعف والتخاذل والتواكل، الأمر الذي لم يحدث ـ بفضل الله ـ ثم بسبب حنكة شجرة الدرّ وحكمتها، وهي التي تمّت الوفاة بحضرتها فكتمت هذا الأمر، وأمرت العبيد أن يُحْمل الملك سراً في محفّة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تنجلي المعركة عن نصر قريب، ولم يَفُتْ شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وأن تبعث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين هذا من جهة، ومن جهة ثانية راحت شجرة الدر، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء، تعمل على إدخال كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة الملك، بحجّة أن السلطان حي يرزق، بل راحت توقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان وهي التي حذقت تقليد توقيعه، ومحاكاة خطه، وإن قال بعضهم إن الذي حذق تقليد الملك وتوقيعه، هو خادم لشجرة الدرّ اسمه سهيل، كتم الأمر وخضع له، خدمة لمولاته السلطانة[1]. بهذا التدبير الحكيم، وذلك الأسلوب المميّز والحنكة الفريدة استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما استطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع[2] والاستسلام.

كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للتربع على كرسي السلطة بعد مقتل نورانشاه، ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب «أم خليل»[3]، وهكذا أصبحت هذه الجارية، أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب، والتي تزوجها بعدما أعتقها، ملكة المسلمين في مصر وسلطانة المماليك البحرية، يخطب لها على المنابر، ويدعون لها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي[4].

(1) موسوعة تاريخ مصر (2/ 671) لأحمد حسين.
(2) شجرة الدرّ، د. يحي الشامي، ص: 52.
(3) شجرة الدرّ، نور الدين خليل، ص: 75.
(4) شجرة الدر، د. يحى شامي، ص: 54.

3 ـ الدعاء لها: كان مما يدعى لشجرة الدرّ قول المصلين: اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح.[1] أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون باسمها على منابر مصر وأعمالها، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم احفظ الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل. إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده صغيراً[2]، وفي رواية: أن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدرّ على المنابر، لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، الجهة الصالحية، أم خليل المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح[3].

4 ـ نقش توقيعها: وأيا يكن، فإن شجرة الدرّ هذه هي التي راح الناس يدعون لها، ويخطبون، نقشت اسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صيغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل[4].

5 ـ الاحتفال بتنصيبها: ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين حتى راح كبار القادة والأمراء يفدون على المليكة، وقد تربعت على دست الحكم في قاعة الإيوان الذي كان بناه الملك الصالح حيث النقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبنوس والرخام، وحيث الفُرش والزرابي والطنافس والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذي أذهلهم الإعلان أن شجرة الدرّ هي ملكة المصريين، وكانوا ما بين مصدِّق للخبر، أو مكذب له، فكنت ترى مواكب الصناع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنّيين والخدم والحشم[5]. على أية حال، قبضت «شجرة الدر» على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت اهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها[6].

(1) النجوم الزاهرة (6/ 374).
(2) بدائع الزهور (1/ 286).
(3) موسوعة تاريخ مصر (2/ 671).
(4) المصدر نفسه (2/ 671).
(5) شجرة الدُّر، د. يحيى الشامي، ص: 56.
(6) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 76.

6 ـ رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدُّر السلطنة: تفجرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي وحاولت شجرة الدُّر أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها، وتقربت إلى العلماء والعامة، إلا أن ذلك ذهب أدراج الرياح، وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها، وقام العلماء والخطباء ينددون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم وفي المحافل العامة والخاصة، وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل «العز بن عبد السلام» رَحِمَهُ اللَّهُ [1]، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم: أعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**»[2]. ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدُّر السلطنة:

النساء ناقصات عقل ودين ... ما رأين لهنَّ رأياً سنيّا

ولأجل الكمال لم يجعل الله ... تعالى من النساء نبيّا[3]

7 ـ شجرة الدُّر تخلع نفسها: لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس «شجرة الدُّر» على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بد وأن يغرقهم في موجاته[4]، وبعد ثمانين يوماً تنازلت «شجرة الدُّر» عن الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو «عز الدين أيبك» التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل إن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته[5]، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة (648 هـ). وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم

(1) قصة التتار، ص: 229.
(2) بدائع الزهور (1/ 287).
(3) المصر نفسه (1/ 287).
(4) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 77.
(5) المصدر نفسه، ص: 77.

الملك الصالح أيوب رَحِمَهُ اللَّهُ ثم مات، فتولى تورانشاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي[1].

8 ـ حكم تولي المرأة للولاية العامة: اتفق فقهاء الإسلام ـ على اختلاف مذاهبهم ـ على عدم جواز تولي المرأة لمنصب الإمامة العظمى، وأن الذكورة شرط أساسي فيمن يتولى هذا المنصب[2]، حتى الذين ينادون بحقوق المرأة السياسية، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب، ويقولون بقصر الرياسة أو رياسة الوزارة على الرجل دون المرأة[3]، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يرون رياسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرياسة أو الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي[4]، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول:

أ ـ الكتاب: ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء، الآية: 34]. وجه الاستدلال: جعل الله تعالى في هذه الآية القوامة للرجال على النساء وهم قوامون عليهم، والقوامة على الأمر، أو المال أو ولاية الأمر، والقيِّم: من يقوم بالأمر، والقوَّام: صيغة مبالغة، أي حسن القيام بالأمر[5]، فلما جعل الله تعالى القوامة للرجل دون المرأة، فهو يعني حصر القيام بانتظام الأمور، وتدبير الشؤون، وولاية الأمر في الرجل، وهذه القوامة عامة تشمل: ولاية الأمور العامة والشؤون السياسية، بما فيها الإمارة والوزارة والخلافة ونحوها كما تشمل الشؤون الأسرية ورعاية أهل البيت، فالرجال قوامون على النساء، أي: القائمون بانتظام أمورهن، وكفالة نفقتهن، ومسؤلون عن الذب عنهن وحفاظهن، وأمرهم نافذ عليهن، فهم الحكام والأمراء، وعليهن طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله[6].

ومما يدل على أن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط، أنه لم

(1) قصة التتار، ص: 331.
(2) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 83.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) المصدر نفسه، ص: 84.
(5) تفسير الطبري(8/ 290).
(6) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 85.

يأت بكلمة(في البيوت) في الآية حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية[1]، والله لم يعطها حق القوامة على بيتها وإنما جعله للرجال، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت[2].

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة،الآية:228] ووجه الاستدلال إن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة وعدم اعتبار حقوقها وشخصيتها، فيبين الله ـ تعالى ـ هنا أن النساء كالرجال في الإنسانية ولهن حق حسن المعاشرة كالرجال، ولكن المراد بالمماثلة مماثلة الواجب بالواجب في كونه ما يردده البعض في العصر الحاضر من كون مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بيانها في الآية السابقة الإمرة والطاعة[3].

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة، الآية: 247]. وجه الاستدلال: إن الله ـ تعالى ـ يبين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك، وذلك أن بني إسرائيل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك، قالوا: إنه لا يستحق لأنه ليس من أهل بيت الملك، ولأنه فقير ليس عنده مال، فرد الله عليهم بأنه استحق للملك لأمرين: لكون زيادته في العلم، وقوته في الجسم، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تسند إلى من لديه علم واسع، وهو قوي جسيم حتى يتحمل مشاق هذا المنصب[4]، ومن المعلوم أن المرأة ضعيفة الجسم والبنية لا تستطيع تحمل المشاق مثل الرجل، وهذا أمر فطري، فلهذا لا يسند إليها قيادة البلد[5].

ب ـ السنة: قال ﷺ: «لن يُفلح قوم ولُّوا أمرهم امرأة»[6]: إن الذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفاق، وأجمعت الأمة في العصور الأولى من الصحابة والتابعين؛ وتابعيهم والأئمة والفقهاء والعلماء والمحدثين والمفسرين على اختلاف مذاهبهم، أجمعوا على أن لا تصلح المرأة للإمامة الكبرى، ولا تجوز توليتها رياسة

(1) تدوين الدستور الإسلامي، ص: 71.
(2) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 91.
(3) جامع البيان(2/ 454).
(4) تفسير الرازي(6/ 174) مدارك التنزيل (1/ 163).
(5) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 93.
(6) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4425.

المملكة، كذلك رياسة الوزارة في النظام البرلماني لأن لها صلاحيات مثل صلاحيات الإمام. وعلى هذا دلت الأدلة الصحيحة من الكتاب، والسنة وهي ظاهرة في دلالتها ويقتضيه العقل والقياس، والحكمة في خلقة المرأة وتكوينها النفسي والجسدي، والاعتراضات الموجهة إلى حديث صحيح البخاري مردودة، ليس فيها شيء من القوة، إذ تلقته الأمة بالقبول والمعترضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي وأما القول المعارض الذي حدث متأخراً فليس له دليل صحيح من الكتاب والسنة، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ولا يحتج بفعله[1].

ثانياً: سلطنة عز الدين أيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني «الملك المعز» ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا[2]. غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات المياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها[3].

1 ـ الخطر الأيوبي والصليبي: رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وانسلخت عنها دمشق والكرك والشوبك والصبية وغيرها من ممتلكاتها التابعة

(1) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 161.
(2) قيام دولة المماليك الأولى، للعبادي، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.

لها في الشام وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها[1]، وشنوا حملة إعلامية مركزة على المماليك وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في الفدية التي أعطاها لهم وتلك التي تعهد بدفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة المسلمين[2]، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام وعمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقلاقل في الشرق الإسلامي، وأما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم أصحاب الفضل الأول في إحراز النصر على لويس والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين[3]، حتى وصفهم ابن واصل بأنهم كانوا داوية الإسلام[4]، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر أن تثور ثائرة العالم المسيحي ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد المسلمين قد لا يستطيعون دفعها[5]، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا فحسب، وإنما في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً، ثم هم لم ينسوا بعد ما اقترفه «تورانشاه» ابن مولاهم الصالح أيوب في حقهم وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءات، كان من الضروري وضع حد لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ويبطش[6] بهم، وأنهم بتخلصهم منه إنما أنقذوا مصر من مفاسده ومباذله، ولذا فهم يرون أنهم أحق بالملك من غيرهم[7].

أ ـ لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين: ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس. وحري بالذكر في هذا المجال أن المسيحيين في المعاقل اللاتينية في سورية ـ وعلى رأسهم لويس ـ كانوا يدركون حقيقة

(1) العدوان الصليبي على بلاد الشام، د.جوزيف، ص: 144.
(2) المصدر نفسه، ص: 145.
(3) المصدر نفسه، ص: 145.
(4) المصدر نفسه، ص: 145.
(5) المصدر نفسه، ص: 146.
(6) المصدر نفسه، ص: 146.
(7) المصدر نفسه، ص: 146.

الحال في مصر والشام وكانوا ملمين إلماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الانتقال هذه، إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد أنعش آماله[1]، كما وجد الفرصة مواتية لتعويض ما خسره في مصر[2]، ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجرى في الشرق الإسلامي من أحداث وقتذاك أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دي ناجي، ووليم دي شارتر، ومتى الباريزي وغيرهم، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية في هذا الشأن، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية وعن موقف لويس منه[3]، من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ خطة السياسة والدهاء، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاته في حملته الفاشلة على الديار المصرية[4].

ب ـ تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع: هكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك الفرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكل منهما يمنّيه بالوعود المغرية طمعاً في كسبه إلى جانبه، ولكنه اتخذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ما تمليه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتخذ قراراً حاسماً، فقد كان بوسعه الانضمام إلى أحد الفريقين أو الوقوف موقف الحياد أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملاً في استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن[5]، على أية حال، لم يكد لويس يستقر في عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه، وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين[6]، كان السلطان عز الدين أيبك يراقب الأحداث عن كثب وقرر مواجهة

(1) العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: 147.
(2) المصدر نفسه، ص: 146.
(3) المصدر نفسه، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 148.
(6) المصدر نفسه، ص: 149.

الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً. وحتى يمتص نقمة الأيوبيين، اختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضُربت لهما السكة على الدنانير، والدراهم[1]، ويبدو أن أيبك علم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ولويس التاسع، وخشي وقوع تقارب أيوبي صليبي، فأرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم، إن قام بأي عمل عدائي ضده وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف. غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين ما زالوا في مصر[2].

ولما يئس الناصر يوسف من استقطاب الملك لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتلوا وراء أيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً، وخرج أيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها فأمر بهدم ثغرها، حتى خُرب كله، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون وضعفاء الناس، وسموها «المنشية»[3].

2 ـ معركة بين المماليك والأيوبيين: والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة (648هـ) الثالث من شباط (1251م) عند العباسية بين مدينتي بلبيس، والصالحية، انتصر فيها الناصر يوسف، في بداية المعركة، على الرغم من استبسال المماليك، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ص: 396

(2) مذكرات جوانفيل، ص: 200، 208.

(3) السلوك (1/ 466)، تاريخ الأيوبيين، ص: 398.

العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت، بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[1]، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة[2].

كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشة، فقد استثمر أيبك انتصاره هذا، فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة[3]، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور استيلائه عليه من الناصر يوسف[4]، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للاعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود واستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته[5].

3 ـ تحالف مملوكي ـ صليبي: استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على أيبك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في (650هـ/ 1252م) بهدف مناوأة الناصر يوسف، جاء فيها:

ـ وافق أيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.

ـ إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية.

ـ وعد أيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن[6].

غير أن التحالف المملوكي ـ الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج إذ بعد توقيع المعاهدة اتفق كل من أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن يستولى لويس التاسع على يافا، في

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 398.
(2) تاريخ الأيوبيين، طقوش، ص: 398.
(3) المصدر نفسه، ص: 398.
(4) المصدر نفسه، ص: 398.
(5) المصدر نفسه، ص: 398.
(6) المصدر نفسه، ص: 399.

حين يستولي أيبك على غزة، ثم يتم الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية[1]. وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي[2]، بينما تقدم الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعده من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول دون التقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، ارتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع[3]. وبفعل سيطرة الأيوبيين على غزة ظلّ المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر احتكاك واستمر كل منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تم بين الطرفين في أوائل (651هـ/ 1253م)، فما الذي تغير على الساحة السياسية؟[4].

4 ـ الخليفة العباسي وسعيه في الصلح: الواقع أنه لم يقدر للعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الآونة، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى وتطلب منهم أن يتحدوا وهو ظهور المغول الذين اكتسحوا العراق ووصلت طلائعهم قرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيته بين الناصر يوسف والمعز أيبك[5]، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما تقرر فيه:

ـ اعتراف الناصر يوسف بسلطة أيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

ـ اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام.

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 399.
(2) المصدر نفسه، ص: 399. (3) المصدر نفسه، ص: 399.
(4) المصدر نفسه، ص: 399.
(5) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (1/ 400).

والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة، وكان المعز أيبك قد استغل انتصاره على الناصر يوسف، وازدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف اسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة الجبل وذلك في عام (650هـ/ 1252م)، واستقل بالسلطنة[1].

ومهما يكن من شيء فقد اتضح للملك الفرنسي واللاتيني أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا اتحدت جهودهم، واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل. وكان الصلح التي تم بين الناصر والمعز أيبك في صفر (651هـ/ أبريل 1253م) بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله، لتلقين الفرنج درساً قاسياً[2]، وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نياته واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم في الشام، وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا، ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر[3].

لقد فشل لويس التاسع في الاستفادة من الانشقاق الذي حدث بين الشام ومصر، إلا أنه اضطر أخيراً إلى العودة إلى فرنسا، فغادر فلسطين في ربيع الأول سنة (652هـ/ 24 نيسان 1254م) مجروحاً في كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً باضمحلال الروح الفرنجية العسكرية وموتها فيما بعد، في وقت كانت تكابد فيه طور النزع الأخير[4].

5 ـ تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر: ومن المشاكل التي اعترضت

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام، ص: 400.
(2) العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: 192.
(3) المصدر نفسه، ص: 200.
(4) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص: 78.

السلطان أيبك، هي ثورة بعض القبال العربية ـ أو ما يسمى بالعربان ـ في مصر سنة (1253م). من المعروف أن القبال العربية استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية، وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف كذلك مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج، وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي، وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم «فساد العربان»، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال[1]، وتجريد العرب من وسائل الدفاع المؤثرة.

ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلي:... فلا يمكن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته ولا استيداعه، وتفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار، واقمع بذلك نفس الفجار وأخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار[2]. وورد في منشور آخر ما يلي:... ولا يمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يقتنيه ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ... ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله، ولا يتسع لأحد في الشرق مجاله[3].

ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك، إلى أن المماليك الذين

(1) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 129.
(2) صبح الأعشى، نقلاً عن: تاريخ القبائل العربية، محمود السيد، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 125.

استولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية، فحسب، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنسب، وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب، ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها، فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر[1]. فقامت الثورات ضدهم واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر، من وسائل قتل وتعذيب معروفة في ذلك العهد، وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك، وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية وسياسية، ولا شك أن الدافع السياسي وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّد ردة فعل لديهم مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سلطانهم. وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام (651هـ / 1253م) وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية كما أسلفنا، فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم بلا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم[2].

وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية، فالفرنج لما تمكنوا من ثغر دمياط في الحملة الصليبية، عملوا ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤوس، وفصلنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية، وقد حاول بعض المؤرخين أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون أسود مظلم قاتم، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك، وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاتهم المتعددة، فإن إشراقة من الإيمان تطل علينا وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد.

(1) تاريخ القبائل العربية، د. محمود السيد، ص: 125، 126.
(2) السلوك (1/ 280)، النجوم الزاهرة (7/ 9)، قيام المماليك، ص: 130.

إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الفذ الذي قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري، الذي كان يستهدف عقيدتنا، وديارنا وأمتنا ويسعى لاجتثاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة اندحار الغزاة وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصادق المتين[1]. إن معركة عين جالوت تمثل مَعْلَمَاً مضيئاً في خضم الظلمات ومثلها معالم أخرى، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون، والمدارس التي بنيت والمكاتب التي أوقفت والمساجد التي شيدت وصرح الخير والبر والمرحمة، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالنووي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والمزي والسبكي والمقريزي وابن خلدون والسيوطي وغيرهم كثير، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

الحقيقة أن هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك، منها: استخدام العنف غير المبرر ضد المعارضين مما ولّد ردة فعل عكسية قال أبو المحاسن: إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[2].وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء[3]، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف «نسبة إليه» وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف[4].

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل الله ثم مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكوَّنوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحلفوا له، واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة، ومن

(1) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، ص: 180.
(2) النجوم الزاهرة (7/ 13).
(3) القبائل العربية، ص: 131.
(4) التعريف بالمصطلح الشريف، ص: 188.

عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة (1253م)[1]، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً وأقام حكومة مستقلة هناك ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه، إلى أن خدعه السلطان بيبرس البندقداري وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية[2]، وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين، فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر[3]، وذكر المقريزي في السلوك أن من نتائج ثورات العرب ضد المماليك: أن تبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ[4].

6 ـ خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي: ومن العوائق التي هددت حكم أيبك ودولته الناشئة، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي، وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه «الملك المعز» كما عين مملوكه قطز المعزي نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه في الحكم، وانفرد بالسلطنة[5]، على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية. ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده، وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية[6]،

(1) السلوك(1/ 387).
(2) التعريف بالمصطلح الشريف، ص: 188، قيام دولة المماليك، ص: 132.
(3) قيام دولة المماليك، ص: 132. (4) تاريخ القبائل العربية، ص: 133.
(5) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 133.
(6) المصدر نفسه، ص: 133.

وتلقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ويتمتع بها أقطاي، فالمقريزي يقول عنه: واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتاباً ولا يتكلم بشيء، ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي لكثرة خشداشيته[1].

وابن تغري بردي يقول عنه: فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية، وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك، وحدثته نفسه بالملك وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد[2] فيما بينهم، وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لأقطاي[3]. قال الذهبي عنه: فعظم، وصار نائب المملكة للمعز، وكان بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير التحمل، أبيع بألف دينار، وأقطع من جمله إقطاعه الإسكندرية، وكان طائشاً ظلوماً عمّالاً على السلطنة، يركب في دست الملك، ولا يلتفت على المعز، ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل عُرس بنت صاحب حماة بها[4]، وفهم منها المعز أنه مستهدف لإزالته من الحكم فقرّر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي يستدعيه موهماً له أنه يستشيره في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من مماليكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة وقرر معهم أنه إذا مَرَّ مجتازاً بالدهليز يبتدرونه بسرعة، فلما وردته إلى أقطاي رسالة المعز بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه من غير أن يعلم أحد من خشداشيته[5]، لثقته بتمكن حرمته، وطلع القلعة آمناً ولم يدر بما كان له كامناً فلما وصل إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه المماليك المعزّية فأذاقوه كأس المنية[6]. وكان قتله يوم الاثنين حادي عشرين من شعبان، وأمر المعز بغلق باب القعلة، فركبت مماليكه وحاشيته وكانوا سبعمائة فارس ومعهم جماعة من البحرية وقصدوا قلعة الجبل، بناءً على أن المعز قُبض عليه فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا:

(1) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، ص: 412.
(2) النجوم الزاهرة(7/ 10، 11).
(3) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 133.
(4) سير أعلام النبلاء(23/ 197).
(5) خشداشيته: الزميل في الخدمة.
(6) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 220.

على من تقاتلوا؟ فتفرقوا جميعهم، ولما شاع الخبر بقتله، أجمع البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاون الألفي، وسنقر الأسقر، وبَيْسري، وسِكر، وبرامق[1]، فشمروا ويلاً وخرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخرجوا منه نحو الشام، فسمي من يومئذ الباب المحروق[2]، وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده. ولما أصبح المعز، بلغه هروبهم من المدينة فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم، واستصفيت أموالهم وذخائرهم وشؤونهم وخزائنهم، واستتر من تأخر منهم، وحمل من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المكثرة من الأموال ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع، وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الإسكندرية إلى الخاص السلطاني، وأبطل ما قرره من الجبايات، وأعفى الرعية من المصادرات والمطالبات.

وأما البحريّة، فإنهم وفدوا على الملك الناصر، فأحسن إليهم، وأقبل عليهم وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه، ثم عزم على قصد الديار المصرية، فجرد عسكراً صحبة البحرية فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلاً، وبلغ المعزّ مسيرهم إليه واتفاقهم عليه، فبرز بالعساكر المصرية ومعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية، فنزل الباردة بالقرب من العباسية، وانقضت هذه السنة وهو مخيم بها[3]، وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب الروم، وكان الناصر قد خطبها لنفسه، فزفت إليه بدمشق، ودخل بها واحتفل بها احتفالاً كبيراً[4].

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين والمماليك ووصل نجم الدين البادرائي للتوسط بين الطرفين ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

- يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام.
- ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية.

(1) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 220.
(2) المصدر نفسه، ص: 220، دراسات في تاريخ مصر، سحر عبد العزيز، ص: 239.
(3) المصدر نفسه، ص: 221.
(4) التحفة الملوكية في الدولة التركية، بيبرس المنصوري، ص: 360.

7 ـ مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر: يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة (1256م) إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفاً زواجياً لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين، وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل، وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، وذلك لأن شجرة الدر لما علمت ما يبيّت لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطته، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض أيبك على عدد كبير، منهم أيدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب، فلما وصلوا إلى قرب نافذة القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر، حنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية: (والله يا خوند[1]، ما عملنا ذنب وجب مسكناً ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فأنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم «الصالح أيوب»، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين) فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه «قد سمعت كلامك». وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين: إن كان قد حبسنا فقد قتلناه[2]. ومعنى هذا أن شجرة الدر كانت قد بيتت هي الأخرى لأيبك جزاءً وفاقاً، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه علم بمؤامرتهم، فأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم.

غير أن شجرة الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان، إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر، ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً أن يكون في الأمر خدعة، ولم يجبها بشيء، وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المفاوضات السرية فبعث بها إلى أيبك ينصحه أن يأخذ حذره، وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللوتي وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه، وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة، وانتهى السباق

(1) الخوند: السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث.
(2) السلوك(1/ 401 ـ 402).

بانتصار المرأة في ميدانها، إذ أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجري ونصر العزيزي، وسنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي[1]، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة (1257م، 655هـ)[2]، قال الذهبي عن السلطان المعز: كان ديناً عاقلاً، كريماً، تاركاً للشرب[3].

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ووضعه على فراشه، والادعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما انتشر نبأ وفاة السلطان، وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروي واقعة سقوطه من على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها في ريبة، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده لكنها في كل مرة كانت تصر وتؤكد الواقعة[4]، وأحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الانتقام، لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته، وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر، وصنعوا منها ملكة وسلطانة، وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم، حتى في أصعب الأوقات، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض؛ ثمّ إنهم انقسموا على أمرهم، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية، فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم ابنه خليل، ولها من الأيادي على مصر وعلى المماليك أنفسهم الشيء الكثير البادي للعيان، ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين، وأخيراً انتصر أعداؤها وحُبست في أحد أبراج القلعة، ونودي بعلي بن عز الدين أيبك السلطان الراحل، سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل، ويحدثنا أحد

(1) قيام دولة المماليك الأولى، للعبادي، ص: 139.
(2) المصدر نفسه، ص: 139.
(3) سير أعلام النبلاء(23/ 198).
(4) شجرة الدرُّ قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 85.

المؤرخين أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت كما كانت قوية في مواجهة المدلهمات، فلمّا أيقنت من نهايتها أسرعت إلى خزانتها واستخرجت حليها ومجوهراتها جميعاً، وسحقتها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي زوجة السلطان الأولى، وفي هذه الرواية شك كبير كذلك؛ فكيف لشجرة الدر، وهي سجينة في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزنتها وتستخرج حليها، ثم تسحقها جميعاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي كما يقول المؤرخ[1]؟

وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها انتشار النبأ، ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها، وتوقفت أعمال الشغب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت تتهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد حيث كانت غريمتها أم علي، زوجة أيبك الأولى قد أصبحت منها أم السلطان الجديد، وتمايلت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيبك وهجر معهما ابنهما علي.

إن ساعة الانتقام قد أزفت، وأمرت خادمات القصر بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة[2]، يقول المقريزي: فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها، سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام ـ وقد نتنت ـ وحملت في قفة، بتربتها[3]. قال عنها الذهبي: ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة، وقيل: إنها أودعت أموالاً كثيرة فذهبت، وكانت حسنة السيرة هناك، لكن هلكت بالغيرة[4]. وقال ابن العماد فيها: كانت بارعة الحسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء... نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خُطِبَ لها على المنابر، وملّكوها عليهم أياماً، فلم يتم ذلك، وتملك المعز أيبك فتزوج بها، وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أمرها إلى أن قتلت[5].

(1) شجرة الدُّر قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 86.
(2) وسير أعلام النبلاء (23/ 199).
(3) السلوك (1/ 494).
(4) سير أعلام النبلاء (23/200).
(5) شذرات الذهب (7/ 464).

وأما غريمتها أم السلطان الجديد، أم علي، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة، إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها، وعندما ماتت شجرة الدر، أمرت طهاة القصر بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يسمح بالانتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، كما كميات ضخمة الخبز، يجري تسخينها إلى درجة الاحمرار وتغمر في اللبن والعسل، ثم تغطى بطبقة سميكة من اللوز والزبيب والصنوبر، وهي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم في المطاعم في أيامنا هذه، وقد سميت باسم أول من صنعتها، أم علي[1].

8 ـ سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز: صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع أيبك صبياً في الخامسة عشر من عمره هو «نور الدين علي» ابن سيدهم المعز أيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة (655هـ/ 1257م) ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ـ في الأردن حالياً ـ غزو مصر مرتين، لكن الفشل كان من نصيبه[2]. بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز أيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان: . . وصار مدبر دولة الملك المنصور علي[3].

وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذه

(1) شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 87.

(2) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 80.

(3) المصدر نفسه، ص: 81، السلوك (1/ 405).

كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر، ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء من ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك ولم يشأ «سيف الدين قطز» أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه[1]، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز،.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة[2].

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في ذي القعدة (655هـ/ 1257م) وفي ربيع الأول سنة (656هـ/ 1258م) يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعة «سيف الدين قطز» تم القضاء على هذا الخطر الأيوبي، بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى «الملك المغيث عمر» في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير «عز الدين أيبك الرومي الصالحي»، والأمير «سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي»، والأمير «بدر الدين بكتوت الأشرفي»، والأمير «بدر الدين بلغان الأشرفي» وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[3].

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 81.

(2) النجوم الزاهرة (7/ 43).

(3) السلوك (1/ 411)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 83.

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبي بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدا صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي «نور الدين علي» أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدم[1]، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس[2]. وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية، وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة[3]، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها، وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير «سيف الدين قطز».

ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فأفتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار[4].

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طرلاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التترية الظالمة، لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 83.
(2) المصدر نفسه، ص: 83.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) المصدر نفسه، ص: 88.

السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[1]، وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب، وتحكمت أمه، فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر، والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة (657هـ/ 1259م) وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[2]. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضي به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[3].

9 ـ ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية: لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد ابن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثوبه على الملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[4] والشام، وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم[5]. وأخذ يرضي أمراء المماليك حتى تمكن، على حد تعبير المقريزي؛ وما إن شعر أن

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 89، النجوم الزاهرة (7/ 55).
(2) السلوك (1/ 417)، النجوم (7/ 55).
(3) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 90.
(4) السلوك (1/ 417 ، 418)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 92.
(5) السلوك (1/ 418)، السلطان المظفر، ص: 92.

سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه اسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطينية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز، والطواش شبل الدولة كافور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم، وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً، وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار.

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقال قطز أيضاً: . . . وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[1]. وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم.

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 92 ، 93 ، 94.

الفصل الرابع

معركة عين جالوت الخالدة
انكسار المغول

المبحث الأول: احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة:

أولاً: صمود ميافارقين:

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد،فوجّهوا جيوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العام للعمليات في المنطقة هولاكو خان.

لم يضيع التتار الوقت في عام (656هـ/ 1258م) بعد سقوط بغداد، توجه هولاكو مباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينمر ونصيبين، ومن ثم حرّان، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار والسير باتجاه ميّافارقين وكلّف معه القائدين إيلكا نويان وسونتاي نويان، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد[1].

1 ـ آمد بمواجهة التتار: في عام (655هـ / 1257م) كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميّافارقين قد عاد من زيارة منكوقاآن التتار الأعظم، بعد أن قدم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد[2]، وفي عام (557 هـ) وبينما كان

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 47).

(2) المصدر نفسه (2/ 48).